

## ح ١٢

### الإيضاحات المتعلقة بالمعنى الجملي لآية البسملة<sup>(١)</sup>

١١ - رسالة الله سبحانه إلى خلقه في آية البسملة، والاستجابة الملائمة من

الإنسان لها

الإيضاح الحادي عشر: إنّ القرآن الكريم كما نعلم هو رسالة نصية من الله سبحانه إلى خلقه جميعاً من خلال رسوله (صلى الله عليه وآله وسلّم)، وعليه فإنّهم كلهم مخاطبون بهذه الرسالة.

ومضامين هذه الرسالة على ضربين:

الأوّل: ما هو صريح فيه مثل أصول الدين من الإيمان بوجود الله سبحانه وتوحيده وصفاته، والإيمان بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلّم) وباليوم الآخر، وكذلك التكاليف الشرعية مثل الصلاة والصيام والحج.

---

(١) لقد خصصنا البسملة بمفردها بأبحاث مستقلة مثل هذا البحث وبعض الأبحاث السابقة،

بينما نتناول طرح مواضيع من هذا القبيل في شأن السور القصار بمجموعها، وفي شأن السور الطوال في شأن فقرة منها من جهة أنّ البسملة ليست آية اعتيادية من سورة واحدة، بل هي آية مشتركة تقع في مطلع السور جميعاً عدا سورة البراءة.

**الثاني:** ما يدل عليه دلالة ذكية بحيث تحتاج إلى تفطن وانتباه، لا سيما من الأجيال المتأخرة عن نزول الآيات، ونعبر عن هذا الضرب بالرسائل الذكية التي أريد إيصالها إلى الإنسان.

وهذه الرسائل الذكية تتضح عندما لا يبدو المدلول الصريح للآيات أمراً يراد إيصاله لذاته مثل القصص، فلا بد أن تكون هناك رسالة ذكية أريد إيصالها بمضمون الآية.

على أنه تنعقد الرسائل الذكية للآيات الكريمة حتى في ما كان في مضمون الآية رسالة صريحة، فإنه لا مانع من أن تستبطن رسائل ذكية ضمناً.

وآية البسملة هي بحسب منطوقها الصريح مجرد أدب تمهيدي لباقي السور، ولكنها تتضمن رسالتان ذكيتان إلى الإنسان:

١- إن من ينبغي الابتداء باسمه في الرسائل والمعاهدات وغيرها إنما هو الله سبحانه فحسب دون ما اتُّخذ من آلهة من دونه أو معه - كما كان ذلك هو العقيدة السائدة في بيئة نزول القرآن الكريم - وغير هؤلاء من الملائكة والأنبياء والصالحين.

وكأن في الآية إشعاراً لتعليل ذلك بما كانت تستبطنه لفظة الجلالة (الله) عند العرب حتى المشركين منهم من كونه سبحانه هو الخالق العظيم.

بيان ذلك: أن عامة العرب كانوا يذعنون بحصر الخالق بالله سبحانه، وإنما الذي كانوا يدعونهم لآلهتهم التي اتخذوها شركاء لله في الألوهية إنما هو الربوبية للإنسان وتدبيرها أمره، كما يدل على ذلك آيات قرآنية كثيرة جداً كقوله سبحانه:

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup>، ولذلك كان الله

سبحانه لديهم أعظم الآلهة الشركاء إذ كان صدور هذا الخلق كله منه دليل مقدرة غير محدودة وعلم محيط وعظمة بالغة.

بناء على ذلك يظهر أنّ لفظ الجلالة كان يستبطن معنى الخلق في المجتمع العربي في الجاهلية وحين مجيء الإسلام، إذ من سنن اللغة أنّ كل شيء اشتهر بصفة انطوى اسمه على الدلالة عليه، كانطواء اسم حاتم على معنى الكرم، وانطواء اسم مادر على معنى البخل وانطواء اسم عصام على بناء المجد لنفسه دون وراثته له، وهكذا سائر الأسماء التي أصبحت مضربَ مثلٍ في صفة من الصفات، فاسم (الله) سبحانه أيضاً كان ينطوي على معنى الخلق والعظمة الخاصة به سبحانه.

وإذا كانت لفظة الجلالة تدل على معنى الخلق، فيمكن أن تدل البسملة على أنّ الله سبحانه هو الذي يستوجب الابتداء باسمه، لأنه هو الخالق.

وقد نبه القرآن الكريم منذ أوّل آياته في النزول على أنّ كون الله سبحانه هو الخالق للكون والكائنات - دون أي شيء آخر اتُّخذَ إلهاً - بنفسه كافٍ في الإرشاد إلى خطأ عقيدة الشرك وإسناد الربوبية للإنسان إلى أشياء أخرى، فكل شيء كامن في معنى الخلق نفسه، وليس هناك من معنى معقول لخلق الله سبحانه للإنسان وما حوله ثم ترك تدبيرهم لغيره، وفي مثل ذلك ينطبق المثل العربي القائل: (كُلُّ الصيّد

---

(١) سورة لقمان: آية ٢٥.

في جوف الفراء)، ولذلك وقع الاحتجاج في القرآن الكريم كثيراً على ربوبيته سبحانه للإنسان بخلقه له ولما ينتفع به من النعم في السماء والأرض من الشمس والقمر والنجوم إلى الرياح والسحاب إلى الأرض الممهدة والجبال والوديان والنباتات والحيوانات إلى ما اشتمل عليه خلق الإنسان من نِعَم من الإدراك والحواس والجوارح والأزواج والأولاد والحفدة، كما جاء في أول سورة قرآنية وهي سورة العلق بعد البسملة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾<sup>(١)</sup>.

إذاً اتضح أن آية البسملة تدل من خلال هذه الرسالة التي تتضمنها على إرساء كون البسملة أدباً توحيدياً، فلا ينبغي الابتداء بغير اسم الله سبحانه في الرسائل والمعاهدات وغيرها.

٢- إنَّ الله سبحانه رحيم بخلقه جميعاً، والرحمة تعطي الإشفاق على المحتاج والاستجابة له، فهو سبحانه معني بحاجات الإنسان مشفق عليه، مستجيب لسؤاله راحم لمن استرحمه، وقد اهتم الله سبحانه بإيصال هذه الرسالة إلى الإنسان على وجه مؤكد للغاية بذكر صفة الرحمة في أول آية نزلت، ثم هي تتكرر في أول كل سورة، وذلك بتضمين البسملة إثبات لقب (الرحمن) له كما كان سائداً في جزء من الجزيرة العربية كاليمن، وهذه الصيغة هي في الأصل صيغة مبالغة في فعل الرحمة،

---

(١) لاحظ في إيضاح ذلك تفسير سورة العلق.

ولم تنسلخ بصيرورتها لقباً عن معنى المبالغة، ثم أكده سبحانه بصفة الرحيم وهي تعطي بصيغتها أنّ ذلك سجية له سبحانه - على توسع في هذا التعبير -.

ومن الحكمة في الاهتمام بهذه الصفة والتأكيد عليها أنها تنفي ذريعة الشرك في نفس الإنسان، وذلك أنّ ذريعة الشرك هي الشعور بأنّ الله سبحانه ليس معنياً بالإنسان فيتخذ الإنسان لأجل حاجته إلهاً آخر ليعتني به، كما كان حال مشركي العرب، فإذا كان الله سبحانه معنياً بالإنسان مشفقاً عليه فلن يتخذ آلهة أخرى من دونه سبحانه وتعالى.

وهذه رسالة متكررة في القرآن الكريم سواء بذكر رحمته ورأفته ووده ولطفه ومغفرته ونحوها، أو بمضامين أخرى - مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

فتوصيف الله سبحانه نفسه بالرحمن الرحيم إلفات نظر للإنسان إلى أنه سبحانه كافل بحوائجه مستجيب لسؤاله، بل في ذلك التزام منه بذلك، فما من إنسان رجا رحمة الله تعالى صادقاً متبصراً إلا أدرك لا محالة ما رجاه أو ما هو خير منه بحيث لو اطلع عليه لرضي به بدلاً.

---

(١) سورة غافر: آية ٦٠.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٦.

هذا عن رسائل الله سبحانه بآية البسملة إلى الإنسان.

وماذا عن الاستجابة المناسبة للإنسان لهذه الرسالة؟ فلكل رسالة استجابة من المرسل إليه، وإن لم يجب عنها برسالة مثلها، بل تلك الاستجابة الحسنة هي أدب يراعى عند وصول الرسالة إلى الإنسان.

والاستجابة على ضربين: استجابة قولية، وأخرى عملية أو نفسية..

فمن الاستجابة القولية من الإنسان عند تلاوة القرآن الكريم ما جاء في بعض الروايات من التوصية بذكر جمل عقيب بعض الآيات، فيقال بعد قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (سبحان ربي الأعلى)، ويقال بعد قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾<sup>(١)</sup> (لا بشيء من آلاء ربي أكذب).

وأما الاستجابة العملية والنفسية فتحصل بالمطاوعة وبمشاعر ملائمة مثل الثقة والرجاء ونحوها.

والاستجابة النفسية لكلام الله تعالى بمثابة الاستجابة القولية، لأن الله سبحانه يعلم بما استتبعه كلامه في نفس من خاطبه وبعث إليه برسالته.

والاستجابة النفسية التي ينبغي أن يتصف بها الإنسان المؤمن تجاه آية البسملة فيما تضمنتها من رسالة أدب الابتداء باسمه سبحانه هي الإذعان والشعور بأن الله سبحانه هو الذي ينبغي أن يبدأ باسمه دون ما سواه.

---

(١) سورة الرحمن: آية ١٣.

كما أنّ الاستجابة تجاه ما تضمنتها البسملة من توصيف الله سبحانه لنفسه  
بالرحمن الرحيم فهي تكون مضافاً إلى اليقين برحمته تعالى بتلاوته لهذا التوصيف  
مقرونةً بمشاعر الاسترحام، بمعنى راجياً الله سبحانه في كل ما يهمه من حوائج  
الدنيا والآخرة.